مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية
مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية التربية الأساسية – جامعة بابل

الإثنولوجيا والأدب المقارن

د. أحمد حسين جوده الشرَيفي
جامعة بابل – كلية التربية الأساسية

Ethnology and Comparative Literature

Dr. Ahmed Hussein Joudah Al- Shuraify
University of Babylon – College of Basic Education
bas150.ahmed.hussien@uobabylon.edu.iq

Abstract:
In the field of the sociology of literature, this paper includes a presentation of sociological and anthropological works that have been published in the fields of sociology and anthropology, particularly those addressing literature, art, and language. The aim of this research paper is to provide a bibliographic review and analysis of these works, which have been compiled through sociological abstracts and other secondary sources. This is considered an unprecedented analytical study in collecting and analyzing such works.

In conclusion, Arabic writings in the field of the sociology of art until the end of the twentieth century have been limited, consisting mostly of theoretical and analytical articles rather than field studies. There remains a long and new path of research and studies that needs to be undertaken in this area. The arts include visual, plastic, and expressive forms—all of which emerge and develop in light of their relationship to various aspects of our lives. However, we lack empirical studies on these artistic phenomena.

As for studies in the sociology of literature, they focus on analyzing all types of literature, whether poetry, short stories, novels, or plays. However, the "novel" has received greater attention from researchers in the field of sociology. Other types of literary texts have not yet been thoroughly examined by specialized sociological researchers up until the end of the twentieth century.

We need to trace sociological studies and writings from the beginning of the twenty-first century in the subfield of the sociology of literature, in order to identify the topics and issues that have been addressed during the last fifteen years since the start of the twenty-first century.

Keywords: Ethnology, Anthropology, Art, and Literature.

الملخص:

وفي مجال علم اجتماع الأدب، فقد اشتمل الإصدار على عرض للأعمال السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي تم نشرها في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا المتعلقة بتناول الأدب والفن واللغة. والهدف من هذه الورقة البحثية هو تقديم عرضًا وتحليلاً ببليوجرافيًا لهذه الأعمال التي تم حصرها من خلال الملخصات السوسيولوجية، ومصادر ثانوية أخرى، وتُعد هذه دراسة تحليلية غير مسبوقة في تجميع وتحليل هذه الأعمال الخلاصة أن الكتابات العربية في مجال علم اجتماع الفن حتى نهاية القرن العشرين جاءت محدودة، وعبارة عن مقالات نظرية وتحليلية وليست دراسات ميدانية ... إن أمامنا شوط طويل وجديد من الدراسات والبحوث المطلوب إجراؤها في هذا المجال. فالفنون منها ما هو تصويري ومنها ما هو تشكيلي ومنها ما هو تعبيري. وهي جميعًا تنشأ وتتطور في ضوء علاقتها ببقية جوانب حياتنا المختلفة. وليس لدينا دراسات واقعية عن تلك الظواهر الفنية. اما عن دراسات علم اجتماع الأدب فهى تهتم بتحليل كل أنواع الأدب سواء كان شعرًا أم قصة قصيرة أم رواية أم مسرحية، غير إن "الرواية" كانت موضع اهتمام أكبر في تناول الباحثين في علم اجتماع. ومازالت الأنواع الأخرى من النصوص الأدبية لم يتناولها باحثون متخصصون في علم الاجتماع حتى نهاية القرن العشرين.

ونحتاج إلى تتبع دراسات علم الاجتماع وكتاباتهم منذ بداية القرن الواحد والعشرين في فرع علم اجتماع الأدب حتى نرصد الموضوعات والقضايا التي عالجوها خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة منذ بدء القرن الواحد والعشرين.

الكلمات المفتاحية: الإنثولوجيا، الإنثروبولوجيا، الفن والأدب.

الاثنولوجيا: [١]

الإثنولوجيا أو علم الأعراق البشرية يهتمّ بالناحية العرقية والسلالية للشعوب من خصائصها العرقية السلالية والثقافية والاقتصادية وكذا حركة ونزوح الشعوب وانتشارها وتوزعها ولغاتها وعاداتها وأعرافها ... وحتى مثالبها....

وهناك تداخل بينها وبين (الإنثروبولوجيا) و (الاثنوغرافيا) ولأن هذه العلوم مجال دراساتها يتمحور حول الإنسان كفرد وعضو في جماعة بل إنّ الإثنولوجيا "الاستعمارية" اختصت في دراسة الأقليات القومية أو الطوائف الدينية مرتكزة خصوصا على الدين والمذهب والعِرْق فإذا كانت الانثوبولوجيا الاستعمارية قد خرجت بنتيجة وهي محدودية الانسان غير الأوربي وقصوره الطبيعي والفطري والثقافي فإن الإثنوغرافيا وسعت مجال المحدودية والقصور إلى شعوب بأكملها وجاءت الإثنولوجيا

لتركّز على العرق والمذهب وهما فتيل سريع الالتهاب يمكن إشعاله متى دعت مصلحة الاستعمار القديم المتجدد إلى ذلك وما يحدث في العالم العربي حاليا ما هو إلاّ نتاج لاستثمار طويل المدى قامت به الدوائر الأكاديمية تحت مظلة وزارات الحربية واستخبارات الدول الاستعمارية، وها نحن في العالم العربي نتيجة لذلك قد عاد بعضنا إلى حرب البسوس وبعضنا إلى "قلعة ألَموت" وحسَنها الصبّاح ليستنبط فتاوى جديدة في الجهاد وبعضنا الآخر ترك إسلام الأخلاق والفضيلة إلى إسلام السياسة ظنا منه أنّ "تصنيع" خليفة في مستوى عمر –وبالوصف الذي ورد في امهات الكتب– يقودنا إلى الحكم الراشد أمرا هيّنا ..... "يحسبونه هيِّنا وهو عند الله عظيم.

وهذا يوجب على النخب المثقفة والسياسية أن تقرأ تاريخ بلدانها وشعوبها لتتعظ ولتعتبر ... لكن ودون ريب هي لا تقرأ لأنها لو قرأت ما كانت لتعيد ذات الأخطاء لتثبت صحّة ما جاء من مثالب في حقها وحق شعوبها.

كعلم الإنسان الثقافي الذي يدرس مُخترعات الشعوب البدائية، وأدواتها، وأجهزتها، وأسلحتها، وطرز المساكن، وأنواع الألبسة، ووسائل الزينة، والفنون، والآداب، والقصص، والخرافات، أي كافة إنتاج الشعب البدائي المادي والروحي. كما تركز على الاتصال الحضاري بين الشعب ومن يتصل بهِ من الشعوب. وما يقتبسهُ منهم، والتطور الحضاري، والتغير الاجتماعي. ومُنذ الحرب العالمية الثانية أخذت تدرس المجتمعات الريفية والحضرية في الدول المتقدمة والنامية.

الأنثروبولوجيا[٢] أو علم الإنسان:

هو من العلوم الحديثة وله عدد من الفروع يهمنا منها هنا الأنثروبولوجيا الثقافية التي تدرس معتقدات الإنسان والنظم التي تقوم عليها البنى المجتمعية وزعم بعض المتحمسين أنّ أبحاثهم في هذا المجال يمكن أن توصلهم إلى إقامة قوانين عامّة عن الإنسان في مجتمعه يمكن بواسطتها إقامة علم تطبيقي وهو ما طبقه الاستعمار الأوربي فعلا على الإنسان في مستعمراته وفي هذا السياق يقوم بـ"رصد" عدد من الصفات السلوكية وهي كلّها بكل أسف غاية في السلبية ثمّ يقوم بإسقاطها على كافة أفراد المجتمع محلّ دراسته "الأنثروبولجية" مثل حدّة الطبع ومحدودية الذكاء والخمول والتعصّب ... وفي الأخير تختصر هذه "المثالب" في عبارات تحقير وإهانة مثل عبارات Bougnole [٣]و Ratonالتي يعرفها المعاربيون (أبناء شمال أفريقيا) جيّدا ولا تزال تستعمَل ضد جالياتهم في فرنسا، لكن أخطرها هي ما تستعمله عامّة السكان الأهالي ضدّ بعضها من تنابز تستغلها الأنثروبولوجيا لإشعال نار الفتنة بين العشائر والمناطق ولذلك أسميناها الأنثروبولوجيا الاستعمارية.

الإثنوغرافيا[٤] أو علم وصف الأعراق وهو فرع من الانثروبولوجيا مجاله الدراسة الوصفية لطرائق وأساليب الحياة لعرق من الأعراق أو مجتمع أو شعب ما، وخلال الفترات الاستعمارية كان هذا العلم مهتما بالشعوب الواقعة تحت الاحتلال التي يضعها في خانة البدائية ويبحث في فلكلورها وفي تناقضاتها ونزعاتها الاحترابية الطائفية والقبلية وقضايا مثل الثأر والتنابز بأسماء أو عبارات قدحية مهينة. ...[٥]

لم يكن رُوَّاد الأنثروبولوجيا يجدون صعوبة في الانتقال من الإثنولوجيا إلى الفلكلور ودراسة الآداب الكلاسيكية الشرقية أو الغربية. فقد كانوا هم أنفسهم في أغلب الأحيان رجال أدب، وكانت تلك الآداب تشكل أساسا للتكوين الذي تلقوه.[٦]

أما الرحالة والمبشرون،[٧] الذين أمدّوهم بالملاحظات والنصوص فكانوا هم الآخرون يتوفرون في أغلبهم على ثقافة أدبية. ومع أن اهتمام هؤلاء بالإثنولوجيا واللغة كان يفوق اهتمامهم بالأعمال الأدبية المحضة، لأن اهتمام الأنثروبولوجيا خلال تلك الفترة كان ينصب أساسا على التراث والأدب الشفهيين[٨]، فإنهم كانوا يتأثرون بالفن والمواهب الشفهية، ولذلك لازال هذان الأخيران يحضيان إلى اليوم باهتمام الأنثروبولوجيين المتخصصين في دراسة اللغة والأدب.

إلا أن الروابط التي تجمع بين الأنثروبولوجيا والأدب سرعان ما ستميل إلى الفتور (في بريطانيا العظمى أكثر من باقي دول أوروربا وأمريكا) بسبب النشأة القوية التي ستعرفها الأنثروبولوجيا الاجتماعية خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. وفيما كان يتزايد توظيف الشعراء والروائيين[٩]، للجانب الأدبي في المؤلفات الأنثروبوبوجية، كان التاريخ والنقد الأدبيان يأخذان صبغة أكثر سوسيولوجية. غير أن الأنثروبولوجيين، كما نبه إلى ذلك و. هـ. ويتلي (Whitely) إليه:

لم يكونوا يجمعون النصوص إلا لما تتضمنه من قيمة أنثروبولوجية. وكما يرى ديك(Deke) ، فإنه لا يمكن اعتبار مجرد نسخ النصوص الإثنوغرافية والتاريخية والتكنولوجية لشعب مًا مساهمة في أدب ذلك الشعب »؛ وإلى عهد قريب جدا... لم يكن اهتمام الأنثروبولوجيا بالنصوص التارخية يتجاوز القيمة التاريخية لتلك النصوص... وقد عرف جمع المعطيات التقليدية تراجعا بعد الأعمال الأولى التي تمَّ إنجازها في القرن الماضي. فالأنثروبولوجيون الاجتماعيون كرسوا كل جهودهم حول المجتمعات المفردة، واللسانيون ركزوا جهودهم على دراسة بنيات اللغة وأنحائها. أما المبشرون فقد انصرفوا كليا إلى دراسة الأشغال الرعوية.[١٠]

لذا، فبسبب انشغال الأنثروبولوجيين خلال فترة ما بين الحربين العالميتين بإعداد ترتيبات حصول حقلهم المعرفي على «أوراق اعتماد» ولوج الوضع الاعتباري للعلمية، فقد أغفلوا الأهمية الكبرى

للنصوص التي كانت بين أيديهم. وإلى أيامنا هذه، لا زال الباحثون الميدانيون لا يفرقون بما فيه الكفاية بين النصوص ذات القيمة اللسانية أو الأنثروبولوجية المحضة والنصوص التي تستخدِم الموارد الأدبية للغةٍ من اللغات بشكل واع في أغلب الأحيان ويكتسي أهمية قصوى، علما بأن آلات تسجيل الصوت قد مكنت الباحثين من أن يجمعوا في بضعة أيام من النصوص مقدار ما كان يقتضي من سابقيهم عدة أسابيع.

لكن الأسس العلمية التي كانت ترتكز عليها أنثروبولوجيا تلك الحقبة سرعان ما تعرضت للتعديل، فاضطر أهل الاختصاص إلى العودة من جديد إلى تسخير معارفهم وملكتهم النقدية لدراسة الآداب بعدما كانوا تركوها جانبا، بتبنيهم الأسس السابقة، وكرسوا جهودهم لتطوير بحوثهم على ضوئها. ومن المؤكد أن الأعمال القديمة التي تحضى بقبول كبير لدى الأنثروبولوجيين المختصين في الأدب هي أعمال مؤلفين لم يعتبروا «العلم» و«الأدب» و«التاريخ» أنشطة مهنية بينها انفصال تام.

ومن بين هؤلاء المؤلفين هـ. مونرو وك. ن. شادفيك.[١١] فقد شجعا دراسة المحكيات الشفهية غير الأوروبية بفضل كتابهما الهام «التطور الأدبي» وبكل السلطة التي كانا يستمدانها من موقعهما باعتبارهما باحثين مرموقين في الدراسات الجامعية الأكثر عراقة. وقد استخدم مارسيل غريو.M (Griaul) وإثنولوجيا مدرسته هم الآخرون نمطا في فهم النصوص الأدبية عليما وأدبيا في آن واحد، وتأثيراتهم لا زال يلمس في الأعمال الفرنسية المعاصرة وفي مؤلفين أمريكيين أمثال ف. هـ. صوشنغ (Sushing)وروث بندكت (Benedict) وبول رادن (Radin) وم. ج. وفرانس هرسكفتش .(Herskovits) وفي بريطانيا العظمى لم يكف مالينوفسكي عن التحاور مع نقاد الأدب والفلاسفة مع أنه كان من أنصار قيام علم أنثروبولوجي. ويبدو ذلك من خلال التذييل الذي كتبه لمؤلف "ج. أ. رتشاروس. ك. أغدن» (Ogden) معنى المعنى (The Meaning of « .(Meaningكما تظهر النصوص الأنثروبولوجية العديدة التي نشرها مرفوقة بشروح وتعليقات وعيَه الجيد ببعض القضايا الأدبية.

البحث الأنثروبولوجي والبحث الأدبي

وقد استمر علماء الفلكلور هم الآخرون في الجمع بين البحث الأنثروبولوجي والبحث الأدبي. فالفلكلور شكَّل دائما جزءا من الحقل الأدبي من خلال صلته بفقه اللغة وتناوله بالدرس مشاركة أغلبية أميي مجموع سكان بلد ما وقيمها التحتية في الأعمال الأدبية الرسمية.

وقد استغل مؤرخو الأدب ونقاده بكيفية واسعة تلك «الثقافة الجماعية» التي دونها الفلكلوريون والأنثروبولوجيون خلال الحقبة المتسمة بتوجههَا التاريخي.(١٢)

ويولي الأنثروبولوجيون الذين يدرسون الأدب ومؤلفوا الأعمال الخيالية أهمية كبرى لتلك الثقافة لأنها تمثل التقليد الجماعي الذي لا يتأتى تقويم تفرد مختلف المؤلفين إلا بمقارنة إنتاجهم به.

وإذا كان الفلكلور قد أصيب بنوع من الاضمحلال بسبب التقدم الذي عرفته باقي العلوم الاجتماعية فذلك يرجع إلى كونه كان يبدو بمثابة مجرد تعبير عن فضول متحمس لجمع فتاتات اللغة والعادات الشعبية صادر عن أفراد مثقفين ينتمون إلى طبقات أرقى من طبقة مُخبريهِم. ولهذا السَّبب، كثيرا ما كان المثقفون المنحدرون من الشعب – ومعهم آخرون – يرون أن الأنثروبولوجيا تختزل الأدب إلى "فولكلور".

وقد كان هؤلاء يتشككون في التساهل الذي يحضون به خلال دراساتهم الجامعية من قبل المهتمين بالفلكلور. وبصدد هذا الاختزال يقول شنوا آشيبي (Chinua Achebé) مثلا: كثيرا ما يعتقد أن الأدب التقليدي النثري يتمثل في الحكايات الشعبية والملاحم والأمثال والأحاجي... إلا أنني سأمضي إلى حد القول إن تلك الأشكال لا تمثل سوى الجانب الأقل أهمية في ذلك الأدب. فإذا أخذنا مجتمع الإغبو، وهو المجتمع الذي أعرفه جيدا، اتضح أن أجمل نماذجه النثرية لا توجد في الأشكال السابقة وإنما في الفن الخطابي، بل وحتى في المحادثة. أما الأحاجي والألغاز والأمثال... فهي محفوظة في قوالب صارمة ولا يمكنها أن تتنوع بشكل إرادي. أما المحلمة... والحكاية... فهما أكثر مرونة، غير أنهما تظلان أسيرتي بناء معين... وعلى العكس من ذلك، يفرض فن الخطابة والمحادثة الجادة التوفر على موهبة فردية وأصيلة. وفي أشكالهما الأكثر جمالا يجب وضعهما في مقام عال جدا.(١٣)

غير أن هذه الاعتراضات فقدت قوتها تدريجيا خلال العشرين سنة الأخيرة. ويبين مصنف مثل «الدراسة الفلكلورية (The study of Folklore) لألان دوندس (Alain Dundes) أن متخصصي اللغة والأدب الشفهيين والمكتوبين ومتخصصي الأنثروبولوجيا والفلكلور وعلم النفس قد بدأوا يعثرون ثانية في موضوعات أبحاثهم على جوانب صالحة لإنجاز بحث مشترك حول طبيعة المخيلة وتاريخها، وهو بحث يرقى إلى مستوى كبير من الدقة بالمقارنة مع سابقه. ومن هنا فإن النظرية الحديثة في الأنثروبولوجيا نفسها تدين بالكثير للأعمال التي أنجزها النقد الأوروبي حول الرمزية والمجَاز والتحليل النفسي ودراسات أخرى من هذا القبيل.(١٤)

واليوم يقاسم أيضا عددُ كبير من الأنثروبولوجيين نقاد الأدب والفلكلوريين واللسانيين والفلاسفة العالم البنيوي، هذا العالم الذي يتميز به الحاضر كما كان «المنهج المقارن» ميزة للماضي. وتكتسي البنيوية أهمية كبرى بالنسبة للأعمال الأدبية لأنها تبحث عن إطار يحتوي مبدئيا على سائر التعابير الجادة الصادرة عن المخيلة والفكر.(١٥)

وإذا كان الأنثروبولوجيون الذين يدرسون الأدب يتوقفون بالضرورة مليا عند اختلافات الأسلوب والوظيفة في المحكيات تثير في مستوى جد عميق مشاكل مشتركة، ويضعُ التداخل الملاحَظ بين الأنثروبولوجيا من جهة، والفلكلور والدراسات الأدبية من جهة أخرى، يضعُ المساهماتِ السوفياتية (سابقا) في المقام الأول. فهي في الواقع متميزة بجدية تصنيفها وتطور تقنيات تحليلها بما فيها المنهج البنيوي. ويعتبر المصنف الذي يجري إعداده – في معهد غوركي للأدب العالمي التابع للأكاديمية السوفياتية للعلوم – في عشرة مجلدات حول الأدب العالمي، يعتبر بدون منازع المشروعَ الأكثر طموحا الذي يمكن العثور عليه في هذا المجال. فهو يرتكز على سوابق منهجية هامة من بينها ما يسمى بعلم الأدب التصنيفي المقارن (la science comparative–typoloique de la littérature).والعنصر البنيوي في الدراسات السوفياتية متميز بالخصوص في الأبحاث المتعلقة بالأساطير الملحمية والحكايات الخرافية.

وإذا كانت الترجمة وأصالة النصوص والحكم النقدي تعَدُّ أكثر المشاكل شيوعا في تاريخ الأدب وسوسيولوجيا الأدب، فإنها لازالت قائمة إلى اليوم. لقد ألحقت آلة التسجيل المحمولة – ولا زالت تلحق – بدراسة الأدب والموسيقى تغييرا سريعا جدا. غير أن ذلك لا يجب أن ينسي إيجابيات المناهج القديمة التي كانت تجمع النصوص بالكتابة وبمساعدة شرح محلي دقيق. ففي تلك المرحلة كان الباحث، بواسطة الاتصال الشخصي المباشر، لا يتمكن من فهم تعقيد التلميحات المتواترة تواترا في قسم هام من الأدب الشفهي فحسب، بل كان أيضا يتمكن من استيعاب معايير الأسلوب ووجاهة الحكم الأخلاقي والجمالي وعناصر العادة والتقليد، وكلها أشياء لا تملك سوى حظوظ ضئيلة للظهور وسط تسجيل ميكانيكي سريع. كذلك، وهذا ينطبق على الأدب والأنثروبولوجيا على حد سواء، لا شيء بمقدرته أن يعوض فكرا متمرسا قادرا على البحث عن تفسير نص من النصوص في عين مكان إنتاجه. ويبدو أكثر فأكثر من البديهي أن النص الأصيل، الشعري خاصة، يتحدَّى في معظمه كل محاولة لترجمته إلى مفردات أوروبية منحدرة من تجربة حياتية مختلفة تماما عن تجربته. وتعتبر المعايير النقدية والمقولات الفنية عند الأهالي من المواضيع التي تتطلب بكيفية

مستعجلة إجراء دراسة معمقة. ولإنجاز مهمة مثل هذه يتعين علىالأنثروبولوجيين أن يتعلموا الكثير من الأدب المقارن.

لقد كانت الدراسة الأنثروبولوجية للأدب – وعمليا لا زالت – تنكب دائما على الأعمال الشفهية أكثر من الأعمال المكتوبة. ولكن الانتقال الذي تشهده اليوم شعوب عديدة، من طور التواصل الشفهي إلى طور التواصل المكتوب، ينبغي أن يشكل مناسبة للأنثروبولجيين أكثر من غيرهم لتحديد الآثار الجمالية والاجتماعية والتاريخية والنفسية المترتبة عن هذا التحول. فالفرصة متاحة لهم بكيفية ملحوظة كي يسجلوا بالتفصيل وفي عين المكان الترتبات الاجتماعية لدخول عالم الكتابة. وانطلاقا من ذلك سيتمكنون من دراسة – بمصطلحات إنسانية وواضحة – ماذا يتم عندما يملك المؤلف إمكانية أن يكتب وينشر لجمهور من القراء الفرديين بدلا من أن يغني أو يحكي أمام جماعة حاضرة.

لكن أعمال لأنثروبولوجيين ليست في حاجة إلى الاتكال على الأدب الشفهي للشعوب ذات الثقافة المختلفة عن ثقافتهم. فالأهمية التي يولونها للأدب، شأنها شأن تلك التي يولونها للمجتمع، هي مسألة تجربة اجتماعية كلية. وإذا كانوا يمتلكون الكفاءة الأدبية واللغوية الضرورية فلا شيء يمنعهم من القدرة على إعادة خلق هذا السياق حينما يتعلق الأمر بآداب المجتمعات الصغيرة التي لا تعرف الكتابة. ويحدونا أمل صادق في إمكان تحقيق ذلك.

تنويه: نظرا لأن النص الأصلي مثقل بالهوامش، فقد ارتأينا التصرف في قسم منها بإسقاطه.

ويتعلق الأمر هنا أساسا بالإحالات التي تشير إلى مراجع باللغة الروسية. (م).

علم الثقافات المقارن (الأثنولوجيا *Ethnology*) :

تعتبر الأثنولوجيا من أقرب العلوم إلى طبيعة الأنثروبولوجيا، بالنظر إلى التداخل الكبير فيما بينهما من حيث دراسة الشعوب وتصنيفها على أساس خصائصها، وميزاتها السلالية والثقافية والاقتصادية، بما في ذلك من عادات ومعتقدات، وأنواع المساكن والملابس، والمثل السائدة لدى هذه الشعوب.

ولذلك، تعدّ الأثنولوجيا فرعاً من الأنثروبولوجيا، يختصّ بالبحث والدراسة عن نشأة السلالات البشرية، والأصول الأولى للإنسان. وترجع لفظة (أثنولوجيا) إلى الأصل اليوناني (أثنوس *Ethnos*) وتعني دراسة الشعوب. ولذلك تدرس الأثنولوجيا، خصائص الشعوب اللغوية و الثقافية والسلالية.[١٦]

وتعتمد الأثنولوجيا في تفسير توزيع الشعوب – في الماضي والحاضر – على أنّه نتيجة لتحرّك هذه الشعوب واختلاطها، وانتشار الثقافات التي ترجع إلى كثرة الحوادث المعقّدة، التي بدأت مع

ظهور الإنسان منذ مليون (ملايين) من السنين. فهي تبحث، مسألة المصادر التاريخية للشعوب، من أين أتت قبائل الهنود الحمر؟ مثلاً، وأي طريق سلكت؟ ومتى احتلّت هذه الشعوب المناطق الموجودة فيها الآن، وكيف؟ ومن أية جهة تسلّلت إلى أمريكا؟ وكيف انتشرت فيها؟ ومتى ظهرت أجناس الهنود الحمر؟ وما هي الميزات اللغوية والملامح الثقافية التي نشرتها ثقافة الهنود الحمر، قبل احتكاكها بالثقافة الأوروبية؟ وغير ذلك ممّا يفيد في الدراسات الوصفيّة المقارنة للمجتمعات الإنسانية وثقافاتها.

وتدخل في ذلك دراسة أصول الثقافات والمناطق الثقافية، وهجرة الثقافات وانتشارها والخصائص النوعية لكلّ منها، دراسة حياة المجتمعات في صورها المختلفة. أي أنّه العلم الذي يبحث في السلالات القديمة وأصولها وأنماط حياتها، كما يبحث في الحياة الحديثة في المجتمعات الحاضرة، وتأثّرها بتلك الأصول القديمة.

ولذلك، تعرّف الأثنولوجيا بأنّها[١٧]: دراسة الثقافة على أسس مقارنة وفي ضوء نظريات وقواعد ثابتة، بقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطوّرها، وأوجه الاختلاف فيما بينها، وتحليل انتشارها تحليلاً تاريخياً.

وتهتمّ النظرية الأثنولوجية بدراسة الثقافة، عن طريق القوانين المقارنة، ولا سيّما مقارنة قوانين الشعوب البدائية، حيث يهتمّ علماء القانون المقارن بدراسة بعض العادات والنظم والقيم والتقاليد، مثل : النسب الأبوي أو الأمومي، سلطة الأب، الحياة الإباحية، الاختلاط الجنسي، وطرائق الزواج المختلفة. (حمدان، ١٩٨٩، ص ١٠٣)

ويبحث علم الأثنولوجيا في طرائق حياة المجتمعات التي لا تزال موجودة في عصرنا الحاضر، أو المجتمعات التي يعود تاريخ انقراضها إلى عهد قريب، وتتوافر لدينا عنه سجلاّت تكاد تكون كاملة. فلكلّ مجتمع طريقته الخاصة في الحياة، وهي التي يطلق عليها العلماء الأنثروبولوجيون مصطلح " الثقافة ". ويعدّ مفهوم الثقافة من أهمّ الأدوات التي يتعامل معها الباحث الأثنولوجي.

ومن ميزات الأثنولوجيا، أنّها تعتمد عمليتي التحليل والمقارنة، فتكون عملية التحليل في دراسة ثقافة واحدة، بينما تكون عملية المقارنة في دراسة ثقافتين أو أكثر. وتدرس الأثنولوجيا الثقافات الحيّة (المعاصرة) والتي يمكن التعرّف إليها بالعيش بين أهلها، كما تدرس الثقافات المنقرضة (البائدة) بواسطة مخلّفاتها الأثرية المكتوبة والوثائق المدوّنة. وتهتمّ إلى جانب ذلك، بدراسة ظاهرة التغيير الثقافي من خلال البحث في تاريخ الثقافات وتطوّرها.[١٨]

وقد كان هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية، يلقى اهتماما قليلاً قياساً للفروع الأنثروبولوجية

الأخرى، حيث قام بعض علماء الأنثروبولوجيا في القرن العشرين، بدراسة الطرائق التي تؤثّر من خلالها المفاهيم الاجتماعية المحدودة في سلوك الأشخاص وأمزجتهم، ومعرفة الحياة الإنسانية للشعوب التي ما زالت تحيا حياة بسيطة، ولا سيّما تلك الشعوب التي تعيش في : أستراليا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا، وفي بعض المناطق في آسيا .

وكان علماء الأثنولوجيا، وإلى عهد قريب جدّاً، يقصرون أبحاثهم في الظواهر الاجتماعية والإنسانية للمجتمعات الثقافية. وكانوا يعتبرون الفرد كما لو أنّه مجرّد ناقل للثقافة، أو حلقة من سلسلة من الوحدات المتماثلة التي يمكن أن تستبدل الواحدة منها بأخرى. ولكن، وبعد دراسات عديدة، تبيّن لهؤلاء العلماء أن المعايير الشخصيّة، تختلف باختلاف الأفراد والمجتمعات والثقافات.

فمنذ البدايات الأولى لتطوّر الأبحاث الأثنولوجية، والعلماء يحاولون اكتشاف الأسباب التي تجعل مجتمعات معيّنة، تطوّر محاور اهتمام خاصة بها، وتتقبّل أو تنبذ تجديدات مختلفة من النوع الذي يبدو أنّه لا ينطوي على أيّة عوامل نفعية، وكذلك الأسباب التي تجعل الثقافات المتنوّعة تعكس – بصورة منتظمة – اتّجاهات مختلفة في تطوّرها. وساد الاعتقاد حيناً من الزمن أنّ هذه الظاهرات يمكن عزوها إلى وقائع تاريخيّة عارضة، غير أنّ هذه النظرية هي ضرب من الافتراض الجدلي الذي لا يستند إلى أي برهان أو دليل.

ويتّفق معظم العلماء على أنّ مصطلح (أثنوجرافيا) يطلق على الدراسة التي تعمد إلى وصف ثقافة ما في مجتمع معيّن، بينما يطلق مصطلح (أثنولوجيا) على الدراسات التي تجمع بين الوصف والمقارنة. فالأثنولوجي يهدف من تلك المقارنات الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية، ولظاهرة التغيير الثقافي وآثار الاتصال بين الثقافات المختلفة، كما يهدف الأثنولوجي أيضاً إلى تصنيف الثقافات ضمن مجموعات أو أشكال، على أساس مقاييس (معايير) معيّنة.

وهذا يعني أنّ الأهداف النهائية للعالِم الأثنولوجي، هي في الأساس، مماثلة لأهداف عالِم الاجتماع وعالِم الاقتصاد .. فكلّ عالم من هؤلاء، يحاول أن يفهم كيف تعمل المجتمعات والثقافات؟ وكيف ولماذا تتغيّر الثقافات؟ كما يحاول أن يتوصّل إلى تعميمات معيّنة، أو " قوانين " بحسب المصطلح الدارج للمفهوم، لتساعده في التنبّؤ باتّجاه سير الأحداث، بقصد التحكّم به في النهاية. (١٩)

فإذا كان القول بأنّ الأثنولوجيا تدرس الظواهر الثقافية دراسة رأسية، أي دراسة مقارنة زمانية تاريخية لثقافات الماضي، مع متابعة دراسة تلك الثقافات وتطوّرها ومقارنتها عبر التاريخ، فإنّ الأثنوجرافيا تدرس الظواهر الثقافية دراسة أفقية محدّدة المكان، وهكذا تكون الأثنولوجيا دراسة مقارنة في الزمان، بينما تكون الأثنوجرافيا دراسة مقارنة في المكان.

وكان من نتائج الاحتكاك بين علم الاجتماع وعلم الأثنولوجيا، أن تزوّد علم الاجتماع بأساليب جديدة ثبت أنّها ذات قيمة خاصة للباحث الاجتماعي، الذي يعنى بدراسة المجتمعات الحديثة الصغيرة. أضف إلى ذلك، أنّ الاحتكاك بين العلمين وسّع مجال علم الاجتماع، وأدّى بالتالي إلى تغيّر بعض صيغه النظرية.

لقد تبلورت الأثنولوجيا بعد الحرب العالمية الثانية ، وشكّلت ما يمكن الإشارة إليه بالأنثروبولوجيا المعاصرة. وساعد على هذا الاتجاه ودعمه، ازدياد عدد الأثنوبولوجيين في البلدان النامية، بعد إن كانت هذه المهنة وقفاً على الباحثين الغربيين. ولم تعد الأثنولوجيا تقصر مجال دراستها على المجتمعات الصغيرة الحجم، أو المحليّة ذات الثقافات غير الغربية، وإنّما اتجهت لتوسيع مجالها بحيث تشمل الثقافات والمجتمعات كلّها، وعلى اختلاف حجمها وموقعها.

غير أنّ هذا التنوّع الذي اتصفت به الأثنولوجيا في القرن العشرين، أدّى إلى حدوث بعض التضارب في الدراسات، وهذا ما أفقدها الكثير من الاستقرار الأكاديمي، علاوة على تمسّكها بالنواحي المنهجيّة أكثر من توصّلها إلى نظريات علمية، الأمر الذي أثار العديد من التساؤلات حول كيفيّة دراسة الثقافات الإنسانية وعلميّتها، وصلتها بقضايا الإنسان المعاصر.

وكيف ولماذا تتغيّر الثقافات وكما هو معروف أن الأدب المُقارَن[٢٠] هو علم الانتقال من بلد إلى آخر، من لغة إلي أخرى، ومن شكل تعبيري إلى آخر.[٢١] وهو فن منهجي يبحث عن علاقات التشابه والقرابة والتأثير، كما يسعى للتقريب بين الأدب وبين مجالات التعبير والمعرفة الأخرى، وكذلك إلى التقريب بين الظواهر والنصوص الأدبية بعضها وبعض، سواء المُتباعدين منهم وغير المُتباعدين لهذه النصوص في الزمان والمكان.[٢٢] ولكن شريطة الانتماء إلى لغات وثقافات مُتعددة من أجل الوصول إلى .

مفهوم: الأدب الشعبي، الثقافة، الأنتروبولوجيا، الفلكلور.

مفهوم الثقافة

المعنى القديم وغير الإناسي ،يتّخذ هذا المعنى دلالتين مختلفتين تتضحان مّما يلي:

١- **تعريف تونّلا (E.Tonnelat)** ينبغي التمييز بين استعمال القرن السابع عشر لهذه الكلمة واستعمال القرن الثامن عشر لها. في القرن السابع عشر كان لكلمة ثقافة –أول إذا أخذناها بمعناها المجرد– أن تكون مرفقة دائما بشبه جملة تدّل على المادة التي تنطبق عليها الكلمة. فكما كان يُقال "ثقافة القمح (Culture de blé)، كان يقال أيضا "ثقافة الآداب (Culture des lettres)، وثقافة العلوم (Culture des sciences)، خلافا لذلك، كان بعض كتّاب القرن الثامن عشر،

مثل "قوقنارغ" و"فولتير Voltaire" أول من استعمل هذه الكلمة بصورة مطلقة، إذا جاز القول، بأن أضفوا عليها معنى "شخذ الفكر وبلورته".(٢٣)

٢- **تعريف شائع:** "مجمل المعارف العامة".

المعنى الإناسي، ميّز كروبر A. Kroeberوكلوكهوهن C. Kluckhohn بين عدّة طرق لتعريف كلمة ثقافة:

أ- أبسط هذه الطرق هو تعريفها من حيث مضمونها: ويقتصر هذا التعريف على تعداد حسيّ للعناصر التي تتكوّن منها هذه اللفظة. وأقدم هذه الطرق وأشهرها هي طريقة "تايلور Tylor" الذي يقول في كتابه "الثقافة البدائيّة" بأنّ "الثقافة ..هي ذلك الكلّ المعقّد الذي يشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق والقوانين والأعراف وغيرها من الاستعدادات والعادات التي يكتسبها المرء بوصفه عضوا من أعضاء مجتمع ما".

ومن الملاحظ أن هذا التعريف لا يقتصر بالضبط على التعداد، إذ أنّه يشير إلى تعقيد الكلّ المذكور وإلى أنّه مبنيّ ومنظّم، وإلى أنّه غير فطري بل هو مكتسب عن طريق المجتمع.

وهناك تعريفات أخرى، ومنها:

تعريف **ويسلر C. Wissler**: "كل النشاطات المجتمعيّة بمعناها الواسع، كاللغة والزواج وسستام الملكيّة، فضلا عن اللياقات والصنائع والفنّ الخ"(٢٤)؛ فالملاحظ أنّ التعريفات السابقة للثقافة تميزّ بين المفاهيم القديمة التي تراها غير إناسيّة (أنتروبولوجيّة)، والمفاهيم الإناسيّة [1] التي يمكننا أن نستنتج أنّها حديثة. ويعتبر التعريف الإناسيّ للثقافة في نظرنا هو الأهم لأنّه الأشمل الذي تنطوي تحته كلّ من الثقافة العامّة والخاصّة، الشعبية والرسميّة، الشفوية والمدوّنة. وبهذا المعنى يندرج الأدب الشعبيّ ضمن الثقافة الشعبية.

ولقد تزايد الاستعمال الاجتماعيّ والإناسيّ (الأنتروبولوجيّ) كثيرا، هذا الذي لا يبالغ في التمييز بين ثقافة خاصّة ساميّة وأخرى شعبيّة منحطة رديئة. "وهكذا تسجل الكلمة تاريخا اجتماعيا فعليا ومرحلة صعبة جدا ومشوشة في التطور الاجتماعي.

مفهوم الأنتروبولوجيا

يرتبط الأدب الشعبي –انطلاقا من المفاهيم التي نعتته بالشفوية والبدائية– بالأنتروبولوجيا، فهو فرع من فروعها. ولهذا يجب علينا أن نتوقف عند مفاهيم مصطلح "أنتروبولوجيا"، رجوعا لإلى ما قدّمه عالم الأنتروبولوجيا والأساطير "لكود ليفي ستروس".

تعتبر الإناسة (الأنثروبولوجيا) علما مختصّا بدراسة الإنسان والشعوب. ولتشعّب ميادينها، اضطرّ البعض اليوم إلى تقسيمها إجمالا إلى: أنثروبولوجيا بيولوجيّة (فيزيقيّة)، تهتمّ بالجانب الشكلي (المورفولوجي) للإنسان، معتمدة في دراستها على مقارنته بنوعه وبغيره من الرئيسيّات. وأنثروبولوجيا ذهنيّة (عقليّة)، تضمّ الدراسات المقارنة للنتاجات الثقافيّة للأفراد داخل جماعة ما. ويمكننا التمييز بين نوعين من هذه الأخيرة: الأنثروبولوجيا النفسيّة، والنفسيّة الاجتماعيّة، التي تقارن بين السلوكات النفسيّة للأفراد المنعزلين، أو في علاقتهم مع محيطهم. والأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثقافيّة، التي تقارن تقنيّات تأقلم الإنسان مع محيطه الطبيعيّ، والسلوك الاجتماعيّ للإنسان، ونتاجات مختلف الثقافات والمجتمعات.

المصادر والمراجع:

1. W. H. Whitely, A Selection of Africain Prose. I. Traditional Oral Textes, Oxford, Clarendon Press, 1964, p. 10.
2. Qu'est ce que la litterature comparee , Pierre Brunel , Claude Pichois, Andre-Michel Rousseau. p. 150

٣. إثنوغرافيا من كلمتين إغريقيتين هما (Ethnos): وتعني عِرق و Graphein وتعني وصف أو صورة.

٤. – الانثروبولوجيا من كلمتين إغريقيتين (Anthropus) وتعني الانسان و Logosوتعني علم أو دراسة وقد عرّبها البعض بالإناسة أو علم الإناسة.

٥. – انظر تحليل جاكبسون وليفي ستراوس لقصيدة «القطط» لبودلير المنشور في مجلة L'Homme (1962)، وتأمل ليفي ستراوس في سونيتة الصوامت عند رامبو في علاقتها بتجربة هنود أمريكا الجنوبية:

٦. – جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي،

٧. دوستون : نظريات الفولكلور المعاصرة، ترجمة وتقديم، محمد الجوهري وحسن الشامي، منشورات الكتب الجامعية، ١٩٧٢.

٨. – فوزي العنتيل: الفولكلور ما هو؟ دراسات في التراث الشعبي، منشورات دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.

٩. – كلود ليفي ستروس: الإناسة البنيانيّة، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥، ص٣٧٥.

١٠. –[١] – مجدي وهبة؛ كامل المهندس (١٩٨٤)، معجم المصـــطلحات العربية في اللغة والأدب (ط. ٢)، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ص٢١..

١١. – مقدمة كتاب ويتلي المذكور أعلاه في الهامش (٥)

12. Encyclopédia universalis, corpus 1, Etymologie ,Fungi imperfect,Editeur à Paris, 1990,p50,51.
13. Encyclopedie Universales " litterature comparee"1990.
14. Hector Munro Chadwick et K. Nora Chadwick, The Growt of litérature, Cambridge University Press, 1932-1940.
15. Tristes tropiques, Paris,Plon, 1955, p. 121.

١٦. ر. هوغار الذي ترجمه إلىالفرنسية فرانسواز وجان كلود غارسيا، وجان كلود باسورون تحت عنوان «ثقافة الفقير» (La culture du pauvre).

١٧. – ريموند وليمز: الكلمات المفاتيح، معجم ثقافي ومجتمعي، ترجمة، نعيمان عثمان، طلال الأسد، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٧، ص ٩٩.

الهوامش:

[١] – إثنوغرافيا من كلمتين إغريقيتين هما (Ethnos): وتعني عِرق و Graphein وتعني وصف أو صورة.

[٢] – الانثروبولوجيا من كلمتين إغريقيتين (Anthropus) وتعني الانســـان و Logosوتعني علم أو دراســـة وقد عرّبها البعض بالإناسة أو علم الإناسة.

[٣] – عبارات قدح واهانة استعملها الكولون الذين جاء بهم الاستعمار الفرنسي من جنسيات اوربية مختلفة كانوا ينعتون بها الأهالي في شمال أفريقيا وهي لا تزال مستعملة من قبل الفرنسيين في حقّ الجاليات الشمال أفريقية في فرنسا، ويحاول الأكاديميون الفرنسيون تبرئة الاستعمار الفرنسي منها بالقول إن كلمة بونيول (Bougnoule) مثلا هي من لغة الولوف (Wuluf) الأفريقية وهي تعني (الأسود) وإن كانت كذلك لماذا استعملوها لنعت الشمال أفريقيين وهم من الجنس الأبيض بل إن الكثير منهم أشدّ بياضا وشقرة من كثير من الفرنسيين أنفسهم.

[٤] – إثنوغرافيا من كلمتين إغريقيتين هما Ethnos : وتعني عِرق و Graphein وتعني وصف أو صورة.

[٥] – والكل في ناحية بســكرة في الجزائر مثلا يعرف أن عبارة بســيطة لا مجال لذكرها هنا كان التلفظ بها كافٍ لإشــعال نار الفتنة في حقّ قبيلة البوازيد ... وهذا من نتائج زرع المثالب (dénigrements) بين الســكان ... ومن المؤسف أن نجد رئيس حكومة وأمام كاميرات التلفزيون يتفوّه بعبارات من قاموس الإثنولوجيا الاستعمارية في حقّ شــعبه كادت أن تتسـبب في حرب أهلية وهذا ما جعلنا نكتب هذا المقال لنلفت الانتباه إلى خطورة اسـتعمال هذه المثالب التي رصدتها بخبث تلك العلوم ضدّ أمن مجتمعاتنا وانسجامها.

مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية
مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية التربية الأساسية – جامعة بابل

[٦] – في ما يخص الآداب الكلاسيكية الغربية يمكن الإشارة، على سبيل المثال، إلى كل من سير جيمس فريزر ومارسيل موس وريتان. أما بشأن الآداب الكلاسيكية الشرقية، فيمكن ذكر كل من جان هارسون وماكس مولر وروبرتسون سميث.

[٧] – في ما يخص إفريقيا وحدها يجب ذكر كل من كرابف وكالاواي وهاهن وكوبل وكريستالر ويليك وشاتلان وغوثمان وجونود وآخرين.

[٨] – وإلى تاريخ حديث جدا، مثل سنة ١٩٦٢، ظل سير موريس بوورا ((Bowaيتحدث في مقدمة كتابه «الأغنية البدائية» ((Primitive songعن فتح منفذ في مجال لم يسبق – في حدود علمنا – لأي تاريخ للأدب أن استغله. وفي الحقيقة، لقد كان عدد كبير من أساتذة الأدب يسجنون اهتمامهم ضمن المقرر المعمول به في الجامعات.

[٩]– سيفكر القراء الإنجليزيون في كل من د. هـ. لورنس وت. س. إليوت وعزرا باوند، وهذا حتى نكتفي بذكر الأسماء التي تفرض نفسها تلقائيا على الذاكرة. ويستحق آرثر والي ((Waleyأيضا أن يتذكر باعتباره مؤلفا أدبيا قام بالكثير (عن طريق ترجماته من اللغة الصينية) من أجل فتح القراء المثقفين على اهتمامات ومبادئ أدبية مختلفة تماما عما ألفوه.

[١٠] – W. H. Whitely, A Selection of Africain Prose. I. Traditional Oral Textes, Oxford, Clarendon Press, 1964, p. 10.

[١١] – Hector Munro Chadwick et K. Nora Chadwick, The Growt of litérature, Cambridge University Press, 1932-1940.

[١٢] – يمكن الإشارة إلى مثال من بين أمثلة عديدة جدا، وهو كتاب ر. هوغار الذي ترجمه إلىالفرنسية فرانسواز وجان كلود غارسيا، وجان كلود باسورون تحت عنوان «ثقافة الفقير» (La culture du pauvre).

[١٣] – ويحتمل أن تكون الحالة مختلفة جدا عند الفرنكوفونيين. فمثلا لا نجد في العالم المتكلم بالإنجليزية نظيرا للعلاقت التي ربطت بين لوسيانليفي برول ول. س. سانغور وما ترتب عنها من نتائج هامة على صعيد الحوارات والإبداع في الحقل الأدبي، والتي كانت مجلة الحضور الإفريقي Présence Africaine مسرحا لها. كان على العالم المتكلم بالإنجليزية أن ينتظر طويلا كي يجد حوارا أصيلا حول القضايا الأدبية والفنية. ويجب الإشارة هنا إلى أعمال أولي بيير ((Ulli Beierفي إفريقيا الشرقية ثم في بابوازيا بغينيا الجديدة.

[١٤] – مقدمة كتاب ويتلي المذكور أعلاه في الهامش (٥).

[١٥] – انظر تحليل جاكبسون وليفي ستراوس لقصيدة «القطط» لبودلير المنشور في مجلة(1962) L'Homme ، وتأمل ليفي ستراوس في سونيتة الصوامت عند رامبو في علاقتها بتجربة هنود أمريكا الجنوبية:

Tristes tropiques, Paris, Plon, 1955, p. 121. –

[١٦] – جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي،

[١٧]– ريموند وليمز: الكلمات المفاتيح، معجم ثقافي ومجتمعي، ترجمة، نعيمان عثمان، طلال الأسد، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٧، ص ٩٩.

[١٨]– Encyclopédia universalis, corpus 1, Etymologie ,Fungi imperfect,Editeur à Paris, 1990,p50,51.

[١٩] – كلود ليفي ستروس: الإناسة البنيانيّة، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥، ص٣٧٥.

[٢٠]– – مجدي وهبة؛ كامل المهندس (١٩٨٤)، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (ط. ٢)، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ص٢١..

[٢١]– "Encyclopedie Universales " litterature comparee

[٢٢] – –Qu'est ce que la litterature comparee , Pierre Brunel , Claude Pichois, Andre– Michel Rousseau. p. 150

[٢٣] – المرجع السابق نفسه، ص ٣٧٦.

[٢٤] – المرجع السابق نفسه، ص ٣٧٦.